«فما أنا الذي أحيا بعد ذلك بل المسيح يحيا فيّ».

(غلاطية 2: 20)

«لكن لماذا أنا مهتمٌّ بعد في السماء حينما أصبحت أنا سماءً؟».

(القديس يوحنا الذهبي الفم)

«لقد أصبحتم روحًا واحدًا فيّ، من دون التباس ومن دون تغيير»

(القديس سمعان اللاهوتي الحديث)

«... ولكن عندما خلق المسيح الإنسان للمرّة الثانية، أعطاه جسده الخاص. في حين أن المسيح قد أصلح حياة الإنسان فإنه لم يُحسّن روحه، بل بقيت على حالتها الطبيعية، لكنه عندما يسكب دمه في قلوب الذين تقدّموا إليه فإنه يجعل حياته تُشرق عليهم».

(القديس نيقولا كاباسيلاس)

«أنا هو الإنسان الذي أُحبه، والذي أُحبه قد أصبح أنا».

(الحلاّج)

«إن ملاقاة الله لا يمكن أن تتمّ ونحن على طبيعتنا الساقطة».

(بول إفدوكيموف)

ما الخوف إلا عدم لقيا الحبيب

إن معنى الحياة والموت يختلف بين مفهوم واقتناع المؤمن المسيحي وبين غيره. هنا في الزمان والمكان نعلم أن مَن يعيش في المحسوس والمرئي يُقال عنه أنه حيّ. ومَن انتقل إلى العالم غير المحسوس وغير المرئي يُدعى ميتًا. إنما هذا ما نراه ونلمسه بحواسنا. أما المسيحي المؤمن فيقرّ بهذه الحقيقة ولا يتوقّف عندها بل يتخطّاها ويتجاوزها إلى الحق، إلى الحقيقة العظمى. إنه يدرك في عمق إيمانه بأنه يُدعى «ابن الله واهب الحياة». كيف يكون ابنًا للإله الحيّ القدير ويندثر في الزوال؟ أو يزول بعد أن خُلق على صورة الله ومثاله؟

هل تجوز تسمية الحياة المرئية الظاهرة «حياةً» وانتقالنا منها «موتًا»؟ إن الحياة والموت، كما كل شيء آخر، متعلّقان بالإيمان بالله ورحمته ونِعَمه. هذا التعلّق يمنحه بُعدًا غير بادٍ على العامّة لأن المعنى الجوهري لهما يتحوّل ويتأثّر بمدى هذه العلاقة. هكذا «الموت» الفيزيائي المرئي أي «الانتقال» أصبح عبورًا أي «حياة»، و«الحياة» الفيزيائية المرئية إن كانت في الخطيئة أضحت «موتًا»؛ الحياة في المحسوس والمرئي بإمكانه أن يكون تذوّقًا للأبدي إذا اخترنا طريق القداسة -طريق الرّب- بعدما فتح لنا هذه الطريق وعبّدها لنعبر معه إليه.

إنني حيٌّ في موتي لأن الله يحيا فيّ. أعطاني نسمة حياة من لدنه، منه، من نَفَسِه. نفخ في جبلة التراب، في جبلة الموت ووهبني الأنا – الكيان - الحسّ. بُعدي عن الرب نبضاتٌ دون روح، دقّات موسيقى مزعجة من دون لحن، معنىً وجوهرًا.

حيٌّ أنا في موتي لأن الرب قد سكب نعمته في عبده الخاطئ؛ قد أنعم عليّ برحمته التي تتجاوز خطايا البشر كلّها والتي تفوق كل إدراك وتصوّر. وثنيّتي، زناي وعدم إحساسي أماتتني وأنا ما زلت على قيد الحياة. ولكن «الرّب سندي، عاضدي ومخلّصي فممّن أخاف؟».

الحياة – العيش - في الخطيئة موت؛ مائتٌ أنا في حياتي لأن الخطيئة قد امتلكت هذه الحياة التي أعيشها. وأمّا الموت فللأبرار بوابة عبور إلى الحياة الحقّة. وما نحن بأبرار بعد، إنما نحن في سعيٍ، ونعمة الله ممنوحة ومنسكبة على الجميع. أما الساعون والمتواضعون فيجدونها ويغرفون منها؛ إنها الآتيات النازلات على الساعي والمنتظِر؛ إنها تجلّيات الرحمة والرأفة.

الحياة في الخطيئة موت لأنني قد تخلّيت عن مَدَد الحياة إذ إنني قطعت الوِصال. لقد أصبحَت الخطيئة الحاجز، السدّ الذي يمنع تدفّق نعمة الحياة وانسكابها. والدواء هو العودة، الإياب إلى ذلك الوِصال مع الواقف خلف الباب منتظِرًا أن أدق على الباب، منتظِرًا عودتي، فيهرع إليّ كي يضمّني فاتحًا لي باب تحنّنه ويُلبسني ثوب العرس. إن الوِصال هو طريق الحياة الحقّة؛ إنه الطريق الذي يوصِّل؛ إنه الصلاة- الصلة- التي هي صلاة عودة الحسّ إلى الجسد المائت فتعود إليه الحياة في موته.

ذلك هو الموت الحقيقي: أن أتنفّس، أن أشعر بالمحسوس وأنا في الخطيئة، أن لا أكون مع الله. إنه وضع رهيب ومفزع. إنني أشعر وأنا كليّ الإحساس بالنعمة، ولكني غير قادر على التماسها بسبب حالتي الخاطئة. إن الموت «الرقاد على الرجاء»، البُعد عن المحسوس والغياب عن المنظور، هو رهيبٌ أيضًا. إن له

رَهبةً موحشة لأنني أدخل في المجهول وما من عودةٍ أو توبةٍ بعد. ولكن الأبرار هم على يقين، فإن الإيمان يقينٌ والمؤمن لا يحدّه أو يدخله خوف؛ إنه لا يرهب الموت، لأن «مخافته في الربّ» والربّ الداخل عمقه، السابر غوره يسوده ويقوده.

إن هذا الذهاب والولوج الأخير يترك وراءه أحلامًا وحبًا. إنه يترك وراءه وعودًا وآمالاً لم تتحقّق، وهذا يَخلق حزنًا وغمًّا على الذي بقي في قيد هذا الزمان والمكان. إن لم تكن هذه الوعود والآمال الغاية أو الهدف بحد ذاتها إنما وسائل للحياة المثلى، فتهون نكسة الحزن وألمه، فيبقى حينئذٍ ألم الوحدة بعد تفاعل الشركة وحركتها في العلاقة الاتحادية (إن كان هناك زواج)، أو العلاقة الترابطية أو المصيرية في الحالات الأخرى.

يأتي ألم الوحدة من ذلك الانسلاخ القسري غير الارادي. يُحدث وقتئذٍ شرخًا وانقلابًا في التوازن لأن التواصل الحسّي ينقطع. إن اللّذين اتّحدا وصارا جسدًا واحدًا بإتمام السرّ –سرّ الزواج- ينفصلان؛ ليسا بعد معًا؛ كل على حدة –وحيدًا- في مكانين لا تصل بينهما الحواس إلا إذا تنوّرت وسمَت. كذلك أيضًا يفعل ألم الوحدة في العلاقات الإنسانية الأخرى من انفصالٍ وعدم لقاءٍ حسّيٍ ومرئي.

لكن، هل هناك حقًا انفصالٌ؟ أليس إتحادنا وترابطنا هما في المسيح يسوع؟ أليس ترابط الإنسانية أعمق بكثير من الترابط الدموي أو القَبلي والعشائري والوطني؟ أليست الحياة في المسيح هي محور الوجود والكيان؟ أليس الرب يسوع المسيح هو محور ومكوّن السرّ – سرّ الزواج؟ ألا يصبح الاثنان واحدًا في المسيح ومن دونه ليس من وحدة؟ يبقى الكائنان إثنين فلا يذوب الواحد في الآخر، لا يمتزجان

بل يتّحدان في الأصل –أصل الوصال– الذي يوصل إلى الخلاص. فلا داعٍ إذًا لأي من الرهبتين؛ الرَهبة من الموت أو الرَهبة من الوحدة لأن الرب هو الشريك الأساسي. إن الذي رحل إنما هو راقد على رجاء القيامة وهي الحياة في الملكوت مع الرب، وأما الذي بقي فإنه حيّ بالرّب.

لكن الرَهبة في أي من الحالتين لا بد من أن تُداهمك وإن تخطّيتَها في المفهوم اللاهوتي. المهم أن تبقى دائمًا على الرجاء. فإن الذي بقي وحيدًا في هذا العالم يرتجي لقاء الحبيب، وأما الذي رحل فإنه ذهب مرتجيًا أيضًا اللقاء، لقاء الحبيب الذي نقله إليه؛ إنه نفس الحبيب. هنا تكمن الرَهبة –رهبة الرقاد- رهبة الموت، وهو عدم استحقاق هذا اللقاء. ولكن مَن منا مستحق؟ إنما رجاؤنا في رحماته لي ولحبيب الدنيا.